

روسيا والنازيون الجدد في أوكرانيا

الكاتب



عبد الله بلقزيز

لروسيا، شعباً ودولة، ذكرى جمعية مؤلمة مع النازية وبالتالي، حساسية سياسية مفرطة تجاه تنامي قواها الجديدة الصاعدة في أوروبا، في امتداد تنامي صعود حركات اليمين العنصري المتطرف. ليس في الأمر هذا ما يدعو إلى الاستغراب بالنظر إلى التجربة المريعة للشعب الروسي ولشعوب الاتحاد السوفييتي مع حقبة السيطرة النازية على أوروبا، وحروب ألمانيا الهتلرية عليها.

لقد وقع العبء الأكبر في مواجهة النازية الألمانية على الجيش السوفييتي، خاصة اجتياح ألمانيا الأراضي السوفييتية في عام 1941 وصولاً إلى حصار ستالينغراد.

ويكفي أن روسيا وشركاءها في الاتحاد دفعت ضريبة بشرية مهولة في مواجهة النازية (ستة وعشرون مليوناً ونصف المليون قتيل من المدنيين والعسكريين)، فضلاً عن الأكاليف الاقتصادية الهائلة. ومن الطبيعي، في ضوء هذه الخبرة التاريخية المريعة، أن يرتفع معدل حساسيتها تجاه كل ما هو نازي أو يذكر بالنازية في أوروبا أو في جوارها الإقليمي المباشر.

حين نتحدث روسيا، اليوم، عن خطر النازيين الجدد في أوكرانيا، وتضع استئصالهم في قائمة أهداف حملتها العسكرية عليها، فهي تستدعي كل ذلك المخزون الهائل من الذكريات المريعة ومن التمثيلات والصور المرعبة التي تكونت في المخيال الجمعي الروسي ورسخت فيه، لتشكل المادة الخام لموقفها السياسي الخائف من انبعاث النازية من جديد، على مقربة من حدودها القومية؛ بل في مواجهة مباشرة مع امتدادها الروسي في إقليم دونباس شرقي أوكرانيا. وإلى ذلك لا يمكن لروسيا أن تنسى أن للنازية نفوذاً قديماً في أوكرانيا يعود إلى زمن الحرب العالمية الثانية؛ فلقد شارك نازيو أوكرانيا - المتحمسون لهتلر - النازية الألمانية في احتلالها هولندا، في ربيع عام 1940، حتى مع إعلان الأخيرة الحياد في الحرب في عام 1939. ولكن الأهم من هذا بالنسبة إلى الروس، أنهم لم ينسوا أن جماعات النازية في أوكرانيا، الموالية لألمانيا، شاركت في جيوش الأخيرة لغزو الاتحاد السوفييتي في يونيو 1941 منساقين وراء الدعوات

العنصرية تجاه السلاف. كما أن مجموعات أوكرانية متطرفة، يقودها ياروسلاف بانديرا، أعلنت عن قيام دولة مستقلة عن الاتحاد السوفييتي في «لفيف» غربي أوكرانيا. وأنشأت «جيش المتمردين الأوكراني» الذي نفذ مذابح تطهير عرقي لما يقارب المئة ألف بولوني في فولينيا. إن وجود تربة خصبة أنتجت الفكرة النازية في الماضي، قد يُنجب جيلاً جديداً منها ظهر فعلياً على مسرح الأحداث في معارك الشرق الأوكراني قبل ثمانية أعوام.

قد يقال إن المخافة الروسية من تنامي حركات النازيين الجدد في أوكرانيا ليست أكثر من ذريعة يتوسّلها الكرملين لتبرير العملية العسكرية الروسية. وهذا قول يدحضه سيل من المعلومات المتداولة – حتى في الدوائر السياسية والاستخباراتية والإعلامية الأمريكية والأوروبية – عن تلك الجماعات؛ بل ويدحضها التوثيق الإعلامي والحقوقى المدني لفظاعات ضد سكان شرقي أوكرانيا في معارك عامي 2014 و2015. وإلى ذلك فإن ضم النظام الأوكراني هذه الميليشيات النازية إلى الحرس الوطني، وصيرورتها – تبعاً لذلك – جزءاً من بنية المؤسسة العسكرية الرسمية، يعني لدى روسيا أنها جماعات مُكّنّت من أسباب التغلغل في جهاز الدولة وبانت بالتالي، قادرة على التأثير في القرار السياسي والعسكري الروسي، وتنمية العداء الرسمي والشعبي الأوكراني ضد روسيا وروس أوكرانيا.

والحديث في جماعات النازيين الجدد يأخذنا إلى الحديث في أدوار بعضها، منذ أعوام، من قبيل حركة «آزوف» التي يُلقى عليها الضوء، اليوم، وعلى أدوارها في أوكرانيا أكثر من غيرها. ولم تكن روسيا وحدها من نشر المعلومات عن هذه الحركة وميليشياتها، ونبه على خطورة ما تقوم به في أوكرانيا، وما تدعو إليه من أفكار وتحريض عليه من عنف، وإنما شاركها في ذلك دول – مثل كندا والولايات المتحدة (قبل أن تتراجعا عن مواقفها منها) – ومنابر دولية مثل الأمم المتحدة وغيرها من المنظمات الدولية، فضلاً عن منابر إعلامية عدة في بلدان الغرب. وهي جميعها تُجمع على وصفها بالنازية، وتُحذّر من خطورة أفعالها أو تدينها في تقاريرها عن أوضاع حقوق الإنسان.

في تقرير لوكالة «رويترز»، في عام 2018، حذّرت الوكالة أوكرانيا من مغبة عدم التدخل لوقف تفشّ نشاط الجماعات النازية فيها، ولوضع حد لعنفها ضد الناس. وقد تمت الإشارة إلى «الميليشيات الوطنية» التي شكلتها حركة «آزوف». وكانت «آزوف» – وهي اليوم وحدة عسكرية من قوات المشاة مؤلفة من ثلاثين كتيبة من القوميين المتطرفين، متخذة الصليب المعقوف شعاراً لها (مثل النازية الألمانية) – قد تشكّلت، في عام 2014، من «باتريوت أوكرانيا» القومية المتطرفة – التي قادها كما قاد «آزوف» أندريه بيلتسكي (الذي صار عضواً في البرلمان بين 2014 و2019) – ومن مجموعة «الجمعية الوطنية الاجتماعية» النازية الجديدة. ثم لم تلبث «آزوف» – التي توسّع نشاطها فأقامت معسكرات تدريب للفتيان – أن دُمجت، بقرار رسمي، في الحرس الوطني الأوكراني في نوفمبر من عام 2014.

Abdelkeziz29@gmail.com